نظرية النشوء والارتقاء
بين العلم والدين

بقلم الدكتور

عرفة سالم حسن سيف الدين

مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالكلية

فإن البحث فى المعتقدات والأديان من الدراسات الصعبة الشاقة لارتباطها بموضوع يعيشه البشر جميعا على اختلاف واسع فى التصور وتناقض فى الاتجاه . ولم يتفقوا إلا فى الإيمان بالمعتقد والتعصب للدين والفداء التام لما تدينوا به واعتبارهم نقد المعتقد والدين نقدا شخصيا تنفعل له عواطفهم وعقولهم وكيانهم كله . وذلك هو مصدر الصعوبة .

فإذا ما أضيف إلى هذا أن الذى يقوم بالدراسة صاحب دين وعقيدة فإن الصعوبة تقوى وتشتد .

أدرك العلماء ذلك ولكنهم بسبب فهمهم لأهمية دراسة الأديان لم يقفوا صامتين ، بل دخلوا الميدان وبحثوا فى الأديان وقدموا بذلك للإنسانية خدمة جليلة .

وقد سلك العلماء مناهج متعددة فى بحثهم . فمنهم من اهتم ببيان معتقده والدفاع عنه ، ومنهم من اهتم بتوضيح معتقد غيره . ومنهم من اتجه إلى سائر المعتقدات مكتفيا ببيان واقعها وتعاليمها وتطورها . ومنهم من اعتمد منهج التحليل والمقارنة للعديد من الأديان ليصل من خلال منهجه إلى نتائج محددة إلى غير ذلك من المناهج .

لقد نجح العلماء إلى حد كبير فتركوا أمامنا تراثا علميا فى الأديان والمذاهب وبرغم ما فى بعضه من مثالب إلا أنه فى جملته يسهل طريق البحث فى هذا المجال أمام علماء العصر الحديث الذين أصبحوا ملتزمين بمواصلة الدراسة فى الأديان نظرا للتقدم الفكرى والحضارى الذى ساد العالم أجمع .

إن علماء دراسة الأديان فى العصر الحديث أمام واجب تضاعفت أهميته لعدة عوامل منها :

١ — انتصار العلم التجريبى وسيادة الفكر العلمانى فى المجتمع الغربى

بعد معركة طويلة وساخنة مع ظلم وظلمات الكنيسة فى العصور الوسطى واعتناق الأفراد والأمم للعلمانيـــة كمذهب تتبعه أنشطتهم فى العصر الحديث .

٢ — تأثر المجتمعات الإسلامية بما يحدث فى المجتمع الغربى وبدء ظهور العلمانية فى عديد من الأنشطة بسبب ضعف المسلمين وتبعيتهم الحضارية لأمم الغرب وإغفالهم ما يجب أن يتمسكوا به .

٣ — ضرورة المعرفة كحاجة إنسانية تنقذ الإنسان من عالم التخلف وتأخذ بيده إلى الحق والصواب . وبخاصة فى هذا الميدان الهام .

٤ — حاجة العقيدة المطلقة إلى النظرة الشاملة والفاحصة بما يؤدى إلى الوقوف على الواقع . وما داخله من تغير وفى ذلك فائدة تجلية المعتقد والوصول به إلى حقيقته الواجبة .

٥ — ظهور الصراع بين الأمم بسبب المذاهب والأديان واتخاذه صوراً عسكرية وثقافية واقتصادية حتى يمكن القول بأن هذا الصراع أساس كل خلاف بين أمم العالم اليوم .

٦ — محاولة رسم طريق مثالى يعتمد على منهج سليم للأخذ بالإنسان إلى ميدان التعاون والتفاهم والتلاقى فى هدوء على الحق والتجمع معه وتحت لوائه بلا عدوان أو صراع .

إن الدين الإسلامى لا يعادى العلم والعلماء ولا يعرف بيانه تضليلا أو عدوانا فهو القضية العادلة والحقة فى عالم الأديان اليوم .

ومن المعلوم أن الحق أبلج . والعدل أقوى ، ولا يلجأ إلى الصراع والغلبة إلا ضعيف الحجة المتهاون فى البرهان .

أقسام البحث :

وإضافة إلى ما تقدم من هذه المقدمة سالفة الذكر فإن البحث يأتى فى مقدمة وخاتمة فأما المقدمة ذكرت فيها نبذة قصيرة تتضمن البحث فى المعتقدات والأديان . ووضحت فيها أن البحث فى المعتقدات والأديان من الدراسة الصعبة لارتباطها بموضوع يهم البشرية جمعاء . ثم تناولت فى هذا البحث النقاط التالية :

أولا : نشأة العقيدة (الدين) .

١ — تعريف الدين لغة واصطلاحا .

٢ — مصدر الدين وبواعثه :

(ا) الوحى .

(ب) العقل .

٣ — أصل الإنسان :

(ا) عند الوحى .

(ب) عند التطوريين .

٤ — نظرية التطور :

(ا) لامارك .

(ب) داروين .

٥ — النقد التطبيقى :

(ا) نقد التعريف عند التطوريين .

(ب) نقد الباعث على التدين .

(ح) نقد أصل الإنسان .

(د) نقد نظرية التطور .

٦ — البديل الإسلامى :

(ا) آدم وخلقه .

(ب) الإنسان العادى .

٧ — الخاتمـــة .

٨ — أهم المراجع .

أولا : نشأة العقيدة (الدين) :

يحتاج الإنسان بصورة عامة إلى الدين بدافع الفطرة (الغريزة) أو الحاجة أو العادة أو بغير ذلك — حتى لأنه لا يمكن تصور إنسان بلا عقيدة ودين .

يقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة »[1] .

من أحب أن يبحث عن كنه أى دين سماوى أو أرضى يجد معنى مشتركا بينها جميعاً إذ أنه من الواضح إن تفاوتت الأديان فى نفسها أو فى مصادرها أوفى أهدافها أو فى قيمها فكلها يجمعها اسم الدين . فلابد أن تكون هناك وحدة معنوية تنتظمها ويعبر عنها بهذا الاسم المشترك .

فما هى تلك الوحدة ؟

ما الدين ؟

للإجابة عن السؤال الأول لابد من الرجوع إلى معاجم اللغة العربية .

(١) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٥ طبعة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م مطبعة السعادة .

التعريف اللغوى :

بالرجوع إلى معاجم اللغة المتوفرة لدىّ نجد أنها — أى كلمة دين — تدور حول المعانى الآتية :

(ا) الحكم والملك ، ومنه الديان ، وهو من أسماء الله عز وجل ومعناه الحكم والقاضى .

(ب) الطاعة : دنته ودنت له أى أطعته .

(ح) الذل يقال : دانه دينا أى أذلّه واستعبده والمدين : العبـــد « إنا لمدينون » أى مملوكون .

(د) العبادة والشأن تقول العرب ما زال دينى وديدنى أى عادتى .

(هـ) الجزاء والحساب . دنته بعمله دينا : جزيته ومنه يوم الدين أى الجزاء والحساب — ويقال : كما تدين تدان أى كما تجازى بفعلك وقيل كما تفعل يفعل بك[1] .

إذن مما سبق يتضح لنا أن كلمة « دين » تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقياداً وإذا وصف بها الطرف كانت أمرا وسلطانا وحكما وإلزاما وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذى يعبر عنها .

نستطيع الآن أن نقول إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد فإن الاستعمال الأول . الدين هو إلزام الانقياد وفى الإستعمال الثانى هو

(١) انظر إلى لسان العرب لابن منظور ج ٢ ص ١٤٦٨ الناشر دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

التزام الانقياد وفى الاستعمال الثالث هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له[1].

التعريف الإصطلاحى :

إذا نظرنا إلى التعريف الإصطلاحى للدين نجد له تعاريف كثيرة ومتنوعة تختلف على حسب ميول واتجاهات المؤيدين له . وكلها لا تخرج عن الخضوع ومنها . الدين : « الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية »[2] الدين بأنه « محاوله تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه هو التطلع إلى اللانهائى »[3] .

أما تعريف الدين عند الإسلاميين فقد اشتهر عندهم بأنه : « وضع إلهى سائغ لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل » أو بصيغة أخرى الدين « هو وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات »[4] .

وقد اتبع الدكتور / دراز رحمه الله طريقة حسنة لوضع تعريف يشملها كلها توصل إلى أن عناصر العقيـــدة أيا كانت تنحصر فى خمسة عناصر هى :

١ — الخضوع المقدس من جانب المتدين .

٢ — تعلق التقديس بذات لها صفات خاصة لا يقع عليها حس المتدين

(١) انظر إلى « الدين » بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ٢٧

(٢) انظر إلى المدخل لدراسة الأديان تأليف الدكتور محمد بن فتح الله بدران المولود سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م ص ٩٧ طبعة ١٣٨١ هـ .

(٣) نشأة الدين ونموه « ماكس مولر » نقلا من المدخل لدراسة الأديان ص ٩٦ .

(٤) الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ٢٩

٣ — انفراد هذه الذات المقدسة بقوة فعالة مؤثرة مخالفة فى أسلوبها وتصرفاتها لسائر المعتقدين والحوادث .

٤ — قداسة الذات المقدسة على الاتصال المعنوى بالناس .

٥ — الذات المقدسة علوية فوق الطبيعة أو لها روح كذلك .

وبعد إيراده للعناصر المذكورة عرف الدين بأنه : « الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية علوية لهـــا شعور واختيار ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الإنسان . اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة أو فى خضوع وتمجيد »[1] .

٢ — مصدر الدين وبواعثه وحاجة الإنسان إليه :

تختلف الآراء فى مصدر الدين وبواعثه . ويمكننا تحديد هذه الآراء فى اتجاهين . وهما :

(ا) الوحى :

(ب) العقل أو — الإنسان :

(ا) الإتجاه الأول : القائل بأن الدين مصدره الوحى الإلهى من القوة العليا الخالق لهذا الكون وباعث الإنسان على التدين دافع فطرى يحرك الإحساس بالصلة بين وجود قوة عليا وبين مخلوق محتاج إلى الخالق ، وإلى الإرتباط به وإفراده بالعبودية فيعتنقه المؤمنون بالأديان السماوية الثلاثة بالإضافة إلى الديانة الزرداشتية التى يعتقد أصحابها أنها منزلة من السماء على زرادشت وهى ديانة قديمة أوشك اتباعهـــا فى إيران على

(١) انظر المصدر السابق نفسه ص ٣٦ ، ٤٩

الانقراض ولم يبق من أتباعها إلا القليل. هاجر بعضهم إلى الهند وتاريخها يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد وأيضاً الديانة البرهمية وتاريخها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ويعتنقها الآن معظم سكان باكستان (١) .

(ب) الاتجاه الثانى :

يذهب بأن الدين مصدره فكر الإنسان والباعث عليه نفس الإنسان وفكره وحاجته وظروفه الطبيعية وبيئته يعتنقه كثير من الذين يؤمنون بضرورة خضوع كل شيء للمنهج العلمى مدعين أن منهجهم العلمى لم يوصلهم إلى شيء وراء الطبيعة وما لم يصل العلم إلى إثباته يعتبر فى نظرهم باطلا ، ولذلك راحوا يتلمسون علة أو سبب ظهور الأديان فى كل المجتمعات الإنسانية تقريباً فى شيء غير الوحى وما وراء الطبيعة ولم يكن أمامهم سوى الطبيعة نفسها بما فيها الإنسان (٢) .

يعيش الإنسان فى الحياة باحثاً عن كل ما يشبع حاجته منقباً عن أى أمر يسعد عواطفه ونفسه وعقله ومن أجل أن يصل إلى غاياته يستفيد بكل طاقاته وقواه المختلفة .

وقد وصل الإنسان بفطرته هذه إلى بعض الحقائق المتعلقة فى تفهمها بعقل الإنسان أو بعواطفه بالمجتمع كله ومن أهم الحقائق ما يلى :

(١) الإنسان فى ظل الأديان تأليف الدكتور / عماد نجيب ص ٢٠ بتصرف يسير طبعة ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م — الناشر مكتبة الأزهر أمام جامع الأزهر — الدراسة .

(٢) المصدر السابق نفسه بتصرف ص ٢١

١ — ضعف الإنسان أمام المظاهر الكونية المختلفة :

وهذه الحقيقة بدهية مدركة بسهولة لأن الكواكب والنجوم والبحار والصحراء والحيوانات وسائر هوام الأرض تملك من القوى أضعاف أضعاف الإنسان وبرغم ضخامته وقوة المظاهر الكونية فإنها جميعاً تتحرك فى إطار خدمة الإنسان الضعيف بصورة تلقائية وفق قواعد ثابتة ومنظمة .

لقد أدرك الإنسان ضعفه أمام هذه الكائنات فركز فى نفسه الإيمان بقوة هذه المظاهر .

٢ — امتلاك الإنسان لغريزة الخضوع والطاعة :

وقد اكتشف الإنسان هذه الحقيقة منذ البداية وعاشها من خلال نشاطه اليومى ومعاشه مع أسرته . فالصغير يطيع الكبير ويخضع له . وشيخ القبيلة صاحب كلمة نافذة فى أفراد قبيلته والإبن يتبع أمه وأباه . وقد حفلت الآثار التاريخية والأساطير بالشواهد الكثيرة التى تؤيد هذه الحقيقة التى جعلت الإنسان يترقى شيئاً فشيئاً فى الخضوع والطاعة لمن يستحق .

٣ — تميز الإنسان بالعقل والإدراك :

خلق الإنسان عاقلا يدرك ما حوله ويعرف الفوائد التى يحصل عليها من كل جانب وهذه الخاصية فى الإنسان أوصلته بصورة فطرية إلى البحث عن السبب والغاية من كل الكائنات الموجودة أمامه . ومع ترقى الإنسان عقلياً ستشعر بوجود قوة عليا هى السبب فى إيجاد الكائنات ، وهى التى حددت لكل موجود غايته ووظيفته .

٤ — احتياج الجماعة إلى رائد :

لم يعش الإنسان منفردا وأقل جماعة عاش معها هى الأسرة البسيطة وفى إطار الجماعة سلم البشر بضرورة تسليم القيادة لأحد أفرادها ينظم شئونها ويوجهها نحو طريق حياتها الحسنة بقدر الإمكان .

وتلك الحقيقة لم تغب عن فكر الإنسان مع اتساع الجماعة وتطورها حيث نجده يسلم دائماً بضرورة وجود شيخ للقبيلة ورئيس للحى وحاكم للقرية وهكذا . ومع اتساع الأفق الإنسانى فإنه ينظر للكون كله متأكداً من ضرورة وجود سيد أعلى ينظمه ويوجهه[1] .

هذه الحقائق الأربعة من أهم الحقائق النظرية فى الإنسان وهى فى جملتها تؤكد أن الإنسان كائن متدين أوجده الله تعالى مفطوراً على الإيمان بالحق والتسليم لرب العالمين . وهذا يبدو جلياً إذا عرفنا العناصر الأساسية التى يحتاجها الدين حيث يبدو التطابق بينها بذات غيبية لها قدرة خاصة وقادرة على توجيه الكون إلى غايته . كما تحتاج إلى ضرورة الخضوع لهذه الذات المقدسة وطاعتها فى كل ما تأمر وتنهى .

إن اكتشاف هذه القضايا والتسليم بها يؤدى إلى معرفة حاجة الإنسان إلى الدين .

وكما أن الدين حاجة إنسانية فهو أيضاً ضرورة اجتماعية لأن الإيمان بالدين يدفع الانسان إلى احترام القانون والعمل لتماسك المجتمع واستقرار نظامه والسر فى ذلك أن الانسان فى نشاطه الاختيارى يتحرك بدافع

(١) دراسات فى الأديان — أديان العالم القديم تأليف الدكتور أحمد غلوش جـ ١ ص ١٤

ذاتى نابع من عقله وقناعته . فإذا ما تدين الإنسان وآمن عقله وباطنه اندفع بصورة تلقائية إلى التعاون فى الحدود التى يرسمها له الدين .

إن الدين يجعل الإنسان يؤمن بذات علوية رقيبة على السرائر محيطة بالعالم كله وهـذا يمثل أقوى سلطان على نفس الإنسان . ولهذا كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ، والمساواة[1] .

وعلى الجملة . إن الدين حاجة فردية وضرورة اجتماعية .

وبالنظر فى هذه الحاجة الضرورية للإنسان وللمجتمع اهتم العلماء بالبحث فى الدين من ناحية نشأته وتطوره وأشكاله ومدى اتفاقه وتعارضه مع التطور العلمى .

وقد اتفقوا على أن الإنسان لم يوجد قط بلا دين بل هو والدين أمران متلازمان لكنهم اختلفوا فى كيفية نشأة الدين ووضعوا لذلك النظريات المتعددة .

أصل الإنسان :

(ا) عند الوحى : يقول الله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة[2] من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)[3] .

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٥

(٢) السلالة : ما سل من الشىء وانتزع ا . هـ المعجم الوجيز ص ٣١٩ طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١١هـ — ١٩٩٠ م .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٤

(ب) عند التطوريين :

من جهة القائلين بأن مصدر الدين مصدره الفكر الإنسانى .

يعتبر الإنسان فى نظرهم تطور تطورا طبيعيا لمادة أو خلية وجدت بالصدفة فى مكان رطب يساعد على التعفن وتفاعل المادة أو الخلية تفاعلا كيماويا وهذا المكان الرطب قد يكون الماء ذاته أو البرك أو المستنقعات على اختلاف الآراء وانتهى هذا التفاعل إلى إيجاد الخلية الحية التى تطورت إلى خلايا عديدة ثم إلى مخلوقات تحركت إلى إتجاهات وأماكن تفاعلت مع هذا المخلوق لتصنعه على نحو يتناسب مع البيئة والظروف التى تحيط به وظل التطور والتفاعل يتناولان المخلوقات بالتغير والتواؤم تبعا لمدى التفاعل وإمكانياته وطبيعة المخلوق والبيئة التى وجد فيها فكانت الأحياء المائية والبرية .

وفى خلال ذلك انتخبت الطبيعة مايستحق البقاء وأفنت مايستحق الفناء وكان السكان من بين المخلوقات التى تطورت من الخلية الأولى إلى مخلوقات أولية ثم إلى مخلوقات مركبة ثم إلى حيوانات فكان الإنسان تطورا طبيعيا لكائنات مرت بمراحل حتى كان حيوانا يمشى على أربع وظل يفعل التطور يتنقل إلى صورته القويمة الحالية بعد زمان طويل إلى آخر ماتصوره النظريات الطبيعية وعلى رأسها نظرية التطور التى اقترنت باسم دارون ووضع أساسها العالم لامارك[1] .

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان ص ٢١

نظرية التطور :

العالم لامارك يعتقد أن البيئة هى الدافع الأساسى للتطور وهى المسئولة عن تشكيل الجسم والأعضاء والصفات ، ويعتقد أيضا وجود قوة كامنة فى الكائن الحى هى المسئولة عن تطور الأعضاء وفقا لما تقتضيه البيئة ، وقد ضرب المثل بالزرافة واقترض أنها — لطول قوائمها — كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده .

وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية ، والرياض تتوامم عضلاته مع التمرين — والكسول تلين عضلاته مع الكسل[1] .

اختلاف دارون مع لامارك فى تفسير التطور :

دارون : يعتقد بالصدفة والإنتخاب الطبيعى .

لامارك : يرجع كل شىء إلى البيئة ومقتضياتها .

ورسالة دارون عن أصل الأنواع لم تتعرض لأصل الإنسان لكنها أشارت إلى إمكانية الكشف عن أصل الإنسان وتاريخه من خلال نظريته التى تنتهى إلى أن الكائنات تنازعت البقاء وتواءمت مع حاجات هذا التنازع حتى بقى الأصلح وهو الذى استطاع مقاومة الطبيعة والمخلوقات

ويلاحظ «داروين» أن الطبيعة — كما يقول — تقوم بعملية انتخاب وأن مايولد من الأفراد العاجزين غير القادرين على البقاء أكثر مما يقدر

---

(١) أنظر إلى الإنسان فى القرآن تأليف عباس محمود العقاد ص ٧١ دار نهضة مصر للطباعة والنشر وانظر كذلك الإنسان فى ظل الأديان ص ٢١

على البقاء، وأن الأفراد التى تمتاز على غيرها ولو بقليل من الإمتياز قد تفوز بحظ البقاء والتناسل فيزيد عددها ويحفظ نوعها[1].

ويقول: «وإنا لنعلم علم اليقين أنه لو كان فى حدوث أى تحول مهما كان طفيفا ضرر بالأنواع لبادت وللحقت بما غبر عبر القرون، وحفظ تلك للتباينات الفردية المفيدة ثم إبادة الضار منها هو ماسميته بالإنتخاب الطبيعى «أو بقاء الأصلح»[2].

هـــذا وقد علل دارون نشوء الأنواع الجديدة من السلالات والمخلوقات بالتطور من الأنواع القديمة، وهذا ماجعل هاكسلى يرجع أصل الإنسان إلى سلالة القرود ويؤيد هذا الاستنتاج كتاب دارون «أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس»، وانتهى دارون بقوله أن الإنسان تطور من نوع سابق له من الكائنات فاستدل هكسلى على أن ذلك النوع هو القرود بمشابهة الهيكل العظمى للإنسان لهياكل الحيوانات الأخرى بالإضافة إلى فرق جوهرى بين «دارون» و «لامارك» فدارون نقل النظرية من عالم الماديات إلى عالم المعنويات والفكر.

وتبين هذه النظرية كثير من العلماء والفلاسفة وأضافوا إليها وطوروها واستخدموها فى التدليل على عدم وجود شىء وراء الطبيعة وكاماركس أحد الذين استفادوا من هذا الإستنتاج ووضع فلسفته المادية الإلحادية انطلاقا من هذا المبدأ وكون فلسفته الماركسية التى اشتهرت الشيوعية

---

(١) بحث فى حولية كلية أصول الدين — القاهرة بعنوان نظرية التطور بين داروين والمفكرين الإسلاميين بقلم الدكتور / عبد المعطى بيومى ص ٤٤ العدد السادس ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م.

(٢) أصل الأنواع «دارون» ص ١٩٤

أو بالإشتراكية العلمية، ومن هنا كان الإنسان فى نظرهم هو صانع الدين وخالقه ومبتدعه دون أن يكون هناك قوة خارجة عن بيئة الإنسان والإنسانية أو بمعنى آخر دون أى تأثر بقوى خارج الطبيعة حتى قال قائلهم (ما أسرع ماتصلح الطبيعة مايحدث الإنسان فيها من عطب.

مثال تطبيقى على ذلك:

إن جذ الإنسان شجرة وخلفها جذعا داميا، سارعت الطبيعة بنجدتها بكل مالها من فنون الكيمياء لتستر ذلك الجذع الأبتر فى رفق بثوب جديد وماتزال بها تضيف إليها اللفائف الخضراء حتى تعود آية تفتن عشاق الطبيعة من جديد.

وهكذا يرفض أصحاب هذا الإتجاه صلة الإنسان بقـــوة أعلى من الطبيعة أو البيئة الطبيعية التى تمده بكل الأخيلة والأفكار والمعتقدات ويرون أن كل الأديان صنعها الانسان وصاغها تبعا لظروفه وحاجته وبيئته يقول: هنرى برجسون: «والواقع أن الطبيعة. وقد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه.. تلك هى الوظيفة الأسطورية أوالملكة الخرافية التى بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خالية وهذه الشخصيات قد تكون «أرواحا» بادىء الأمر ثم تتحول إلى آلهة.. فيما بعد»[1].

وبعد عرض سريع فى كلمات وجيزة عن تعريف الدين لغة واصطلاحا ومصدر الدين وبواعثه وآراء العلماء فى ذلك أتجه بعد ذلك إلى النقد التطبيقى لكل من:

---

(١) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين تأليف الدكتور/عبد الكريم الخطيب ص ١٨٩ ط / ١ / ١٩٦٢ م الناشر مكتبة كلية أصول الدين تحت رقم ٧٤٧ والإنسان فى ظل الأديان ص ٢٢

١ — نقد التعريف عند التطوريين :

٢ — نقد الباعث على التدين :

٣ — نقد أصل الإنسان :

٤ — نقد نظرية التطور :

النقد التطبيقى الشامل :

١ — نقد تعريف «الدين» عند التطوريين :

من بعض التعريفات سالفة الذكر «للدين» يتضح أن حقيقة الدين لا تكف فى تحديدها فكرة الإعتقاد بإطلاق أو فكرة الخضوع من حيث هى وأنه لابد من إضافة قيد أو قيود أخرى تحددها بإبراز عناصرها الجوهرية وتلك هى المحاولة التى بذلها الباحثون حين قدموا لنا مختلف بعض التعريفات التى أوردنا الآن جانبا منها فى صدر البحث وهذه التعريفات ذات طابع شخصى والتناقض فيها واضحا لأنها تعرف الدين بأنه لايمكن تصوره وإن احتيج إليه وكيف يتصور التعريف إذن ؟ وأيضا فإن هذه التعريفات تخرج الدين عن إطار العقل وهذا غير صحيح[1]

وكذلك فإن التعريف لو أخذ بالمنهج الوجدانى فإنه لايشمل جوانب الدين جميعا فهو غير جامع .

إن هذه التعاليف تشير إلى أن الترفع عن المادة عبادة . وذلك لاينطبق إلا على دين الكهنة ولاينطبق بحال على الدين السماوى[2] .

(١) الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ٢٧ بتصرف .

(٢) قضايا فى الإجتماع الإسلامى د/ محمد الفيومى ص ٢٧ بتصرف .

ومن العلماء من أتبع منهج التحليل عند تعريف الدين حيث أخذ يبحث عن العناصر المشتركة بين الأديان جميعا لمحاولة وضع تعريف يشمل سائر العناصر حتى يكون تعريفه جامعا مانعا، ومن هؤلاء العلماء (دوركايم) الذى لاحظ أن الدين عموما ينقسم إلى جانب فكرى مقدس وجانب عملى يحدد للإنسان كيفية التصرف إزاء الجانب الفكرى المقدس ولذلك نجده يعرف الدين بأنه : « مجموعة متساندة من الإعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة تضم أتباعها فى وحدة معنوية واحدة »[1] .

ويؤخذ على هذا التعريف عدم تحديده للمقدس من الأشياء، فالسحر مثلا عنصر مقدس عند البدائيين وليس كذلك فى الأديان السماوية كما أن الجماعات الإنسانية قد تقدس أشياء مع أنها ليست من دينهم وأيضا فإن «دوركايم» يرى أن الدين صناعة بشرية وتحديده له على إعتبار أنه ظاهرة إجتماعية تتأثر فى حقيقتها واتجاهاتها بالجملة وليس الدين كله كذلك لأن الدين السماوى وحى من الله لاتتغير حقيقته وهو الذى يوجه البشر وينظم سلوكهم وأعمالهم .

كما يؤخذ على هذا التعريف أنه غير جامع لأن الأشياء المقدسة فيه هى الأشياء المحرفة فقط وبذلك قصرها على جانبها السلبى كما أنه غير مانع لانطباقه على كل مظهر من مظاهر النشاط الإجتماعى متى كانت له صيغة العادة المستمرة التى يلتزم بها الجمهور فى مختلف أنشطتهم[2] .

وعلى الجملة فهذه التعاريف تمثل إتجاهات رئيسية لعلماء الأديان أوردتها لمجرد الإحاطة بأسسها الفكرية .

(١) المدخل لدراسة الأديان ص ١٠٤

(٢) دراسات فى الأديان — أديان العالم القديم جـ ١ ص ٨

٢ — نقد الباعث على التدين :

وهنا نسأل سؤلا ثم نجيب عليه .

(س) متى يمكن قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بشيء من هذه الحالات الآتية .

بخوف الإنسان وقلقه :

أو الغريزة :

أو العقل :

أو التفكير :

أو ملكة خاصة :

أو الحاجة الإجتماعية :

(ج) يقبل تفسير الباعث على تدين الإنسان فى مثل هذه الحالات بأمر مما سبق على أساس وجود نزعة التدين الفطرية والخطأ فى التطبيق .

وعندئذ فلا مانع من ربط هذه النزعة بالغريزة أو بالعقل أو بملكة خاصة إلخ ، ولا يجوز لأحد أن يجادل فى وجود دافع فطرى وراء بحث الناس عن مدير الكون ومحركه أى قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بهذه الأمور أو ببعضها أو بأمر منها يمكن فى حالة ما إذا كان الإنسان فيها مصدر الإعتقاد الذى يشبه الدين فى بعض المظاهر ويطلق عليها دين تجوزا أو بالنظر لاعتقاد المعتقد[1] .

(١) الإنسان فى ظل الأديان يتصرف يسير ص ٥٣

ثم نقول أيضا ومتى يرفض تفسير الباعث بشيء من .

— خوف الإنسان وقلقه .

— أو بالغريزة .

— أو بالعقل .

— أو التفكير .

— أو بملكة خاصة .

— أو بالحاجه الإجتماعية ؟

(ج) يرفض فى حالة ما إذا كان المقصود هو الإستدلال على أن الإنسان هو مصدر الدين الحقيق ، بمعنى أن الدافع هذا قد ألجأه إلى صناعة الأديان كلها بما فيها الدين الصحيح .

وعندئذ لا بد من التفرقة بين المصدر والباعث ذلك لأن الخيط الرفيع بين الحالتين جعل الكثير من الدارسين يقعون فى خطأ تصور الباعث على التدين ومصدر الدين شيئا واحدا .

صحيح أن الإنسان هو محل التدين وأن نفسه التى تحمل فطرة الإعتقاد بوجود قوة عليا يشترك الناس فيها جميعا حتى الملاحدة صاروا عباداً لآلهة صنعها أهواءهم كتقديس الماركسيين لماركس وتصورهم للقوة العليا فى الطبيعة لكن هذه النفس أعجز من أن تصل إلى الصورة الصحيحة لتنظيم العلاقة بين حزميات كيان الإنسان نفسه من جهة وبينها وبين الآخرين من جهة ثانية وبينها وبين الكون وكائناته من جهة ثالثة ، فكان لا بد أن تتلقى كيفية هذا التنظيم من قوة قادرة فكان الوحى من لدن الإله مصدر الدين الحقيق الصحيح ، الوحى الخارج عن حدود هذا

الكيان المادى — الوحى الذى يتجاوز أهواء النفس وأغراض الذات وأنانية الفرد إلى نظام عام صالح للفرد وللجماعة .

وهكذا يفترق الباعث على التدين من المصدر الدينى.. ولا يصح أن يكون الباعث النابع من تكوين الإنسان وقواه ومدركاته وحاجاته دليلا على أن مصدر الدين الحقيق هو هذا التكوين النفسى العاجز والتكيف مع جزئياته ومع الكون من حوله .

فنفس الإنسان إذا انتهت إلى الإشتراك فى التطلع نحو شىء مقدس ينظم علاقة الكيان مع نفسه ومع الكون من حوله ومع خالق الكون فإنها لا تستطيع أن تنتهى إلى ذات الدين الذى يقوم بهذه الوظيفة .

ومن هنا تقول : إن العقائد التى تكون من صنع الإنسان وهواه إلخ واضحة ويمكن التعرف عليها بسهولة لأنها عقائد ذاتية فيها أنانية الإنسان وهواه .

أما الدين الحقيقى فلا تلاحظ فيه شيئا من ذلك بل يذهب الدين الصحيح فى تنظيمه لعلاقة الإنسان بنفسه الفردية وبنفسه الإجتماعية مذهبا عادلا يتميز بالنظرة الشمولية .

أما الباعث على التدين فقد يجده الإنسان بين جوانحه لأنه خلق فيه وتأصل فى نفسه حتى تمكن فى حياته الفردية والإجتماعية وبالتالى يصبح مصدر الباعث نفسه هو القوة العليا التى صنعت الإنسان ، « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى »[1] .

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٢

وحين هبط الإنسان الأول فى هذا الوجود حمل من المعارف الأساسية ما يمكنه من العيش فى هذا الكون إذ تنبهت فيه ملكات الحذر واختبار كل شىء حوله لأنه قد تعلم بالتجربة خطورة الإقبال على أى شىء قبل امتحانه حين أكل من الشجرة . بل وقبل أن يأكل نبهه الخالق إلا أنه إذا أكل هبط من الجنة وشقى[1] .

« فقلنا يا آدم : إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[2] .

٢ — نقد أصل الإنسان :

القرآن الكريم هو المرجع الأساسى المعتمد فى الكتب السماوية الثلاثة (التوراة — الإنجيل — الزبور) .

ويكفى الإحساس بقيمة وأصل الإنسان أن الله سبحانه وتعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأنه بهذه النفخة القدسية من روح الله قد تحول إلى كائن عظيم .. له قدسيته ومنزلته تسجد له الملائكة بأمر الله ويسخر له الكون كله .. وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[3] انظر معى فى هذا التعبير الجامع « فإذا سويته » فما معنى التسوية ؟ وبم توحى ؟ التسوية فى الحقيقة هى عملية التنسيق الرائع فى عالم الإنسان الظاهر الباطن — المادى والمعنوى .. وهو تنسيق يجعل من هذا الإنسان نموذجاً رفيعاً للجمال بين سائر المخلوقات « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[4]

(١) المصدر السابق نفسه ص٥٤ (٢) سورة طه آية : ١١٧
(٣) سورة ص، الآية ٧١ (٤) سورة التين الآية : ٤

«وصوركم فأحسن صوركم (١)» تنسيق بجعل من أعضاء الإنسان وملامحه هيئة كريمة وصورة جميلة — تحس من أول وهلة أنها صنعة حكيمة مهذبة مصقولة لا نشاز فيها ولا شذوذ ليست يد أطول من يد ولا قدم أكبر من قدم قد تكاملت الأعضاء وتناسقت الملامح والقسمات والتأمت شتى العناصر لتجعل من هذا المخلوق آية فى الروعة والبهاء «فتبارك الله أحسن الخالقين» (٢). كل ذلك تنسيق العالم الظاهرى من الإنسان وكم يحارفن التجميل الحديث فى تنظيم الأسنان أو تحسين الأنف أو غير ذلك من المطالب اليسيرة. وكم ينفقون من الوقت فى إتمامها ؟

فإذا ماجئنا إلى العالم المادى الداخلى للإنسان من معدة وأحشاء وأمعاء فإن التسوية فى هذا العالم أدق وأصعب. ذلك أن تنسيقها يقتضى أن تعمل متعاونة متآخية من أجل راحة الإنسان وصحته العامة. فمن ذا الذى يجعل هذه الأجهزة الهضمية والتنفسية والعصبية وغيرها تتناسق فى العمل وتتآخى فى أداء الوظائف ؟ إنه الله وليس أحد سواه الذى خلق هذا الجهاز بيديه هو مهندسه الأعظم «ولله المثل الأعلى» (٣) يصرف مايصلحه وما يجعله قادراً على أداء وظائفه.

إن الأطباء المتخصصون فى ساحات ضئيلة من جسم الإنسان هذا طبيب عين وذاك طبيب أنف أو حنجرة أو قلب أو عقل يوزعون الجسم البشرى المتكامل على تخصصاتهم ومع ضيق الحيز الذى تخصص فيه كل واحد منهم فإن معرفتهم قاصرة وعلمهم ضعيف ولا سيما الأمراض الباطنية فإنها تخضع لاجتهادات فردية كثيرا ما تؤدى إلى حياة

(١) سورة التغابن الآية : ٣
(٢) سورة المؤمنون آية : ١٤
(٣) سورة النحل جزء من آية : ٦٠

المريض — فسبحان من وسع بالعلم البصير ظاهر الإنسان وباطنه سبحانه وتعالى (١).

وإذا ما جئنا بعد ذلك إلى العالم المعنوى من قوى مختلفة وغرائز متباينة وقدرات متصارعة وغير ذلك من العواطف والأحاسيس فإن تسويتها تعنى التنسيق بينها حتى لا تتصارع داخل كيان الإنسان — وهى لو تصارعت لدمرت كيان الإنسان فتركيب الغرائز والعواطف والقوى الإنسانية إنما تم بحكمة بالغة.

فإذا ما تصورنا إفرازات الغدد وما تحدثه من تأثير فى السلوك والأخلاق فإن عملية التسوية والتنسيق تبدوا مهمة خطيرة للغاية كل ذلك الفيض من التصورات تعطيه كلمة واحدة فى «فإذا سويته» وهو المشار إليه فى آية أخرى بقوله سبحانه «ونفس وماسواها» (٢).

الإنسان إذن جهاز معقد مركب يحوى فى داخله عوالم شتى ويخفى أسرار عجيبة هو مجهول مهما يتقدم الطب ويتطور العلم — ما خفى من أمره أكثر مما ظهر أشبه شىء بغابة كثيفة ظلماء لا يستطيع أحد أن يقتحمها لأنها تعج بالخوافى والأسرار.

ولو تدبر الإنسان كيف خلق ؟ ثم فكر فى عدد الأجهزة التى تعمل فيه ظاهرة وخافية فى تناسق وانسجام لها له الأمر وغشيه الذهول.

(١) قيم حضارية فى القرآن الكريم تأليف / توفيق محمد سبع حـ ١ ص ٩٥ — ٩٦ سلسلة البحوث الإسلامية — السنة الرابعة — العدد الخمسون — غرة ربيع الآخر ١٣٩٢ هـ — مايو ١٩٧٢م
(٢) سورة الشمس آية : ٧

وعندما نقف وقفـــة قصيرة عند قوله سبحانه « خالق بشراً » وتستوحي كلمة « خالق » نراها تفوح بأسرار دقيقة ... ذلك لأننا سوف نسأل كيف خلق ؟ ومم خلق ؟ وكيف تطور ؟ وهي أسئلة لم يستطع العلم الإجابة عليها رغم تطور المعرفة وتقدم الدراسات الإنسانية ولقد أراحنا الله سبحانه وتعالى بإعطاء المعرفة التي تلائم عقولنا عن أصل الخلقة فقال « خلق من ماء دافق » وهنا يقف العلم بمجهره وأدواته ليبحث في سر النطفة فيرى نفسه أمام عالم يعج بالكائنات « الميكروسكوبية » وهي الحيوانات المنوية ... ملايين من هذه الكائنات الحية المتحركة الجوّالة ... الساعية في الدفعة الواحدة ... ويمضي الطب في بحوثه ليعرف كيف يمتزج حيوان منوي ببويضة الأنثى في الرحم ؟ . . وكيف يتم الجذب ؟ ... أهو جذب كيمائي أم كهربي ؟ ياسبحان الله .. حيوان واحد من بين الملايين السابحة في النطفة فيجذب إلى بويضة المرأة فيلمسه رأس الحيوان في البويضة تاركا الذنب .. ومن هذا الإمتزاج امتزاج نواة الحيوان المنوي مع نواة البويضة يتم التخليق وتنشأ صفات الوراثة في تلك البويضة الملقحة وتستقر هذه البويضة في « قرار مكين » لتأخذ أطوارها فتكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما .. ثم يكتسي العظم باللحم فيتم هذا التخليق في الرحم — في حجرة مجهزة تجهيزاً ربانيا لها خصائص مخاطية فلا تزيد درجة الحرارة عن ٣٧ ٪ مهما اختلفت الأجواء الخارجية [١].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن مقر الجنين هو القرار المكين ووضح ذلك بقوله « يخلقكم في بطون أمهاتكم »[٢].

وإذن فهذا التحديد في مستقر الجنين يجعلنا نقطع بفشل التخليق في

(١) المصدر السابق نفسه ص ٩٧ وما بعدها بتصرف يسير .
(٢) سورة الزمر آية : ٦

أنبوبة اختبار — لأنها ليست المكان الملائم للجنين ولا يمكن أن تخلق بيئة صناعية كل هذه الخواطر والمعاني تعطيها كلمة « إني خالق » ولقد أعطانا القرآن الكريم — معاني واضحة في هذا الموضوع . كانت وما زالت وستظل مصدر العطاء للطب مهما يتفرع ويتطور .

ولقد وقف بعض الملاحدة موقف المعارضة من هذا التدرج الذي أثبته القرآن مثل داروين ومن خدع به . ولكن الأدلة القاطعة حاصرتهم فانبهروا فقطعوا . أخبرنا القرآن الكريم عن النشأة الأولى وكيف بدىء خلق آدم من طين ؟ . وكيف تدرج حتى صار خلقاً آخر حين نفخ الله من روحه .

٤ — نقد نظرية التطور (المذهب التطوري والفطري) .

نقول مهما تتفاوت النتائج في نظر المذهبين التطوري والفطري إلا أنهما متفقان على موضوع البحث . وهو تحديد صورة العقيدة « البدائية » الحقيقية وعلى منهاجه . وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة .

نحن نرى أن حل المشكلة بهذه الطريقة يأتي بخطأ مزدوج .

(أ) خطأ في الغاية .

(ب) وخطأ في الوسيلة :

أما من حيث الخطأ في الغاية التي يهدف البحث وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة باطلاق هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حراما حظرها على نفسه وأعلن صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله . فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف وتستر بثوب مستعار ومؤرخوا الديانات

معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وماقبله لا تزال مجهولة جهلا تاما .

ثانيا : من حيث المنهج . وهو الإستدلال على ديانة الإنسانية :

الأولى : بديانة الأمم المنعزلة عن المدنية فلأنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل إليها وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة وهذا افتراض لم يقم عليه دليل . ولذلك قال العلامة : هوفدبج « إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى فى موضع (ما) وكل ما نجده هو سلسلة من صور العلوم لم تقطع أن تقدم بيانا عن تاريخ الدين الأول . ولكن الكتب السماوية هى التى تقدم « فطرة الله التى فطر الناس عليها ... »[1] .

والحل النهائى لتحديد المبدأ — هو الوحى . لأنه داخل فى موضوع الغيب والذى هو موضوع الإيمان[2] .

نقد المذهب التطورى بوجه خاص :

١ — من الممكن أن يقال الخرافات القديمة بداية الديانات .

٢ — كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مرقت أهلها الحروب .

ونجد أن المذهب التطورى يمتاز بأنه مبنى على افتراض لم يقم عليه

(١) سورة الروم آية : ٣٠

(٢) الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص١١٣ بتصرف يسير

دليل وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية .

٣ — قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة مشتركة نوعية .

وهكذا نرى أن التحليل النفسى وشواهد التاريخ والتطور الصحيح لا يقف شيء منها فى صف الدفاع عن النظريات المرسومة بالتطورية والتى تجعل الخرافة والأسطورة هى بداية الأديان بل إنها بالعكس تميل إلى تأييد النظرية المقابلة لها .

وهناك نظرية يمكن الأخذ بها فى هذه المسألة وتقريرها أن الرشد والضلال فى الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعودا أو إنحدارا على مدى العصور بل هما ظاهرتان متعاصرتان موزعتان فى كل أمة وجيل تبعا لاختلاف الأفراد فى درجات إستقامة الحدس العقلى ونيل الحس الباطنى .

أين الحل إذن ؟

نقول : لقد عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بيانا شافيا عن ديانة الإنسان الأول إن الدين يخبرنا عن أولية العقيدة الإلهية الصحيحة لا فى الغريزة فحسب « فطرة الله التى فطر الناس عليها »[1] بل فى التطور الزمانى كذلك .

فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدؤا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه وأن الإنحراف والإختلاف إنما جاء عرضا طارئا بعد ذلك « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » وأن إستمرار الخلاف

(١) سورة الروم آية ٣٠

واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيـــه « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] .

ونستخلص من كل النظريات التى حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضيه أو الأمم الهمجية صورتها لنا تارة سليمة وثارة سقيمة وتارة ملفقة إنما هى إفتراضات مبنية على إفتراضات فهى لا تصف الحق الثابت الذى هو مطلب العلم الصحيح وإنما تفرض إحتمالات تشبه الحق قليلا أو كثيرا[2] .

ومن باب الأمانة نعرض باختصار النظريات التى حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول على ديانة القرون الماضية أو الأمم الهمجية، وليس معنى ذلك أن نتابعها فى عواطفها بل سنتناولها بالجانب التحليلى أو الجانب التاريخى النسبى ونأخذ من تلك النظريات مذهبين فقط لعدم إتساع الوقت .

أولا : المذهب الطبيعى :

فريق من العلماء يرى أن العامل الأساسى فى إثارة الفكرة الدينية كان هو النظر فى مشاهد الطبيعة ولا سيما الأفلاك والعناصر ، ذلك أن التأمل فى هذا المجال غير المتناهى يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب

(١) سنن أبى داود الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن سماحه الأزدى السجستانى جـ ٢ ص ٥٣١ ط/١٢٧١١هـ — ١٩٥٢م الناشر مصطفى البابى الحلبى .

(٢) الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ١١٨ بتصرف يسير .

بقوة ساحقة غلابة قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لتأثيرها ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها فيجتمع له بين ذلك شعور من دهشة وإعجاب يرى به الكون أشبه شىء بالمعجزه (وفى الحق لهو أكبر المعجزات فإنه لا شىء أقل طبيعية من الطبيعة نفسها .

وصاحب هذه النظرية « ماكس ميلر » فى كتابه عن الأساطير المقارنة ونظريته هذه لا يبنيها على هذا الإعتبار النفسى وحده : بل يستند فيها إلى وثائق لغوية استمدها من دراساته المقارنة للأساطير والتماثيل القديمة وبخاصة من دراسة الفيدا ... نخلص من ذلك إلى أنه قبل تشعب الإنسانية وخروجها من مواطنه الأول كانت هناك لغة واحدة تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى فتكون إذن هى الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات .

غير أنه لما كانت الديانة بمعناها الحقيقى لا توجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات حية عاقلة فعالة يتوجه إليها بالعبادة .

ولنا أن نتساءل ؟

ماهو السبب فى التطور الفكرى من النظر فى مشاهد الطبيعة إلى التفكير فى تلك الكائنات الروحية .

يجيب « ماكس ميلر » بأن هذا من أثر اللغات نفسها لأنها فى العادة تنسب لكل ظاهرة فعلا يشبه أفعال الإنسان .

وعلى سبيل المثال تقول: إن النهـــر « يجرى — والشمس تطلع — والهواء يئن أو يزمجر » إلى غير ذلك، فهذه تعبيرات كانت فى أصلها تعبيرات مجازية تشبيهية طال بها الأمد حتى أخذت على حقيقتها فصارت هذه العناصر نفسها تأخذ فى الأذهان صورة الكائنات الحية المفكرة .

ومن هنا نشأت عادة تمثيل الأفلاك والعناصر فى رموز على صورة الحيوان أو الإنسان ولعب الخيال فى ذلك دورا هاما : فكانت تارة

ترمز إلى الشيء الواحد بتماثيل مختلفة على عدد ماله من أسماء وتارة يرمز إلى الأشياء المتعددة التي يجمعها اسم مشترك باعتبارها حقيقة واحدة تتحول من نوع إلى نوع .

ونجد أن « ماكس » نفسه اعترف بأن العقلية التي تتصور العناصر بصورة الحيوان المفكر عقلية مريضة أوقعها الوهم والخيال في حبائله (١).

ونضيف نحن بأنها في الوقت نفسه ليست عقلية دينية والصواب في تفسير هذه النقلة الفكرية من المادة إلى الروح أنه انتقال من الكائن إلى المكون وهو انتقال معنوي طبيعي من غير حاجة إلى توسط اللغات .

خلاصة ماسبق :

نستخلص مما سبق أن إثارة الفكرة الدينية والحركة العبادية تتولد من تزاوج ميدأيين نفسيين .

أحدهما : غريزة عقلية وهي غريزة التطلع إلى فهم الطبيعة .

والثاني : حاسة وجدانية وهي حاسة التذوق الفني لما في الكون من جمال وجلال .

وإن مما يؤكد هذا القول بأن فكرة التألية وليدة هذه النظرة في الطبيعة أن الإرتباط بين هذا الإحساس الكوني وهذا الإحساس الديني تثبته التجارب النفسية المتكررة في كل الأمم وفي كل العصور « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر : هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »(٢).

(١) المصدر السابق نفسه ص ١١٩ وما بعدها باختصار وتصرف يسير .

(٢) سورة الملك الآية : ١

النقد الذي وجهه « دور كايم » إلى نظرية التدرج والشعور الكوني إلى الشعور الديني :

١ — استبعد بعض الناقدين أن يكون النظر في صحيفة الكون سبباً في إيقاظ الشعور الديني العميق فقال :

(أ) إن استمرارها على نسق واحد يجعلها أمراً مألوفاً لا يلفت النظر .

(ب) لم يكن لها الأثر في العقول الساذجة . كما يضيف الناقد أن العقيدة الدينية نفسها تعلمهم أن قوة الإيمان تزحزح الجبال .

وهكذا تكون العقيدة مستمدة من روح العظمة والمقدرة في مواجهة الطبيعة لا من روح الضعف والخضوع أمامها قال : ولو كان : باعث العقيدة هو الضعف العام أمام الطبيعة والتماس الطريق لاجتلاب الخير واتقاء الشر لكانت الديانات كلها ضرب من الخرافة .

٢ — ولو كان مبعث العقيدة هو المشاهد الكونية وهدف العبادة هو استرحام الطبيعة لما استمر الإنسان على التدين .

الرد على « دوركايم » :

١ — لا ينكر أحد أن الألف والعبادة يغلان من حدة الشعور وأن استمرار المحسات على نسق واحد . يضعف باعثه التفكير في مصدرها . هذا لا شك فيه . ولكن الظواهر الكونية مهما تتشابه أدوارها المتقابلة ما زالت كل حركة منها تعرض على حواسنا صوراً متبدلة وألوانا طريفة فتغير وجوه القمر — اختلاف الليل والنهار . كل ذلك يعطينا تنبيهاً جديداً لمن ألقى سمعه وبصره أن كل واحد في الوجود لا بد أن يسأل نفسه عن

مشاهدة الظواهر ومغزاها — وأدرك أن فى الكون إلهاً واحدا هو الذى يسير الطبيعة وفق إرادته وحكمته .

٢ — القول بأن البدائيين قاصرون على هذا الإدراك لأنهم يزعمون لأنفسهم القدرة على تسخير عناصر الطبيعة لأهوائهم قول مناقض للواقع فالله يأتى بالشمس من المشرق فمن يأت بها من المغرب .

٣ — القول أن قوة الإيمان تزحزح الجبال لا يمكن أن يكون معناه أن الإيمان مبعثه القوة .

ونسأل ما هذه القوة التى يبعثها الإيمان ؟

أليست قوة الثقة والطمأنينة والسعادة . ومن أين تستمد هذه القوة الجديدة المكتسبة من الإيمان . أليس منبعها الاعتماد على القوة الروحية العليا التى يلجأ إليها المؤمنين . إذن ليست قوته الذاتية البشرية .

٤ — ونسأل عن مغزى هذه السلسلة المتلاحقة من الحركات النفسية التى تنتقل من النظر والتأمل إلى الاستعظام والإكبار إلى التوجيه ، والمناجاة . هل يجب أن يكون لها هدف وراء ذلك سوى الإعجاب بهذا بخالق الكون والمتوجه إليه بالتسبيح والتحميد .

٥ — لقد خلط الناقد خلطاً واضحاً بين نظريتين وهما :

(ا) نظرية الإعجاب :

(ب) ونظرية الرغبة والرهبة :

فاعترض على إحداهما بالنتائج المترتبة على الأخرى .

٦ — بقى الاعتراض بأنه لو كان منشأ التدين هو النظر إلى جمال الطبيعة وجلالها لكان يجب أن يوجه التقديس أول كل شىء إلى القوى الكونية العظمى إلى للشمس والقمر والبحار .

٧ — وهناك اعتراض آخر وهو إسناد العبادة إلى الطبيعة نفسها فقد قرر علماء الأديان أن الماديات والحسيات علوية أو سفلية لم تكن يوما « ما » هو المقصود بالعبادة الحقيقية وإنما تقديسها بطريق التبع والمجاورة إما لأنها تعد مهبطا ومزارا لقوة خفية علوية ، وإما لأنها تعتبر رمزا لتلك القوى .

ثانيا : نظرية الخوف والرهبة :

« جيفونس » يرى أن النظر فى مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية ، وأما الظواهر العادية لا تكفى فى إيقاظ هذه الفكرة الدينية .

وأما الحوادث الأرضية المفاجئة والعوارض السماوية النادرة التى يضطرب بها النظام العادى كالبرد كان من الطبيعى أن هذه الحوادث الفجائية الرهيبة تزعج من يشهدها وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها ، اضطر عقليا أن ينسبها إلى سبب خفى ذى قوة هائلة ، على أن « جيفونس » لا يرى مانعا من أن يكون التأمل فى الحوادث العادية والسنن الكونية باعثا أيضا لهذا الشعور ، ولكن يرى أن ذلك لا يكون إلا بنظرة ثانية عند هدوء البال غير أن هذا التفسير وقد تفادى من الاعتراض الأول الذى وجه إلى تفسير « ميلر » قد تعرض لنقد وجيه أشار إليه « سابتيه » وهو « أن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفى وحده لتفسير الفكرة الدينية ولا بد له من شعور آخر يوازنه ويضارعه ويلطف من حدته[1] .

(١) الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ١٢٤ وما بعدها بتصرف يسير .

فساد نظرية النشوء والإرتقاء :

كثير من الفلاسفة لا يقرون ولا يعترفون بنظرية النشوء والارتقاء المنبعث عن البيئة والظروف دون يد هاوية ، وتأثير للخالق الفعال .

وهذه بعض أراء الفلاسفة المعارضين لنظرية النشوء والارتقاء :

١ — يقول الدكتور / « جوستاف جولير » : يكفي لإبطال نظرية داروين أن يتأمل الإنسان الحشرة فإنها ظهرت في أقدم العصور في الحياة الأرضية فإنها تنقلب من حال الدودة إلى حشرة طائرة ولا تأثير لشيء عليها من الخارج .

كما أن المسافة عميقة بين الحالة الأولى وهي كونها دودة — وبين الحالة الثانية — وهي كونها حشرة طائرة وهي هوة تضيع فيها جميع النظريات الداروينية الماركسية ، فالحشرة إذا أدت شهادة حسية ضد مذهب داروين كما أثبت عجزه عن تفسير غرائزها الأولية .

٢ — ويقول « البروفسور جوهانز » إن الصلة بين القرد والإنسان ، مفقودة[1] .

فلم نجد على مدى تاريخ العصور الإنسانية أن واحدا من نماذج الإنسان القردي المكتشفة له حوض الإنسان ، ولم يثبت أيضاً أن هذا الإنسان القردي مرحلة بدائية لتطور الإنسان الحقيق وأغلب الظن أن كل ما يستند إليه نظرية النشوء والإرتقاء نوع من الوحوش المنقرضة

(١) أقباس من نور الحق — تأليف فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير حـ ٢ ص ٢٥ يتصرف يصير الناشر سلسلة البحوث الإسلامية السنة الحادية عشرة رجب سنة ١٤٠٠هـ — مايو ١٩٨٠ م .

قريبة الشبه في تكونها بالتكوين الإنساني أو القردي أو كليهما . وإلا فكيف تمكن العلماء من العثور على حفريات للكائنات الحية الأخرى التي سبق وجودها الإنسان بأزمنة سحيقة . وفي نفس الوقت يفشلون في العثور على الحلقة الوسطى الحقيقية بين القرد والإنسان .

وإذا كان بعضهم قد أطلق على ما اكتشفه من نماذج اسم الإنسان أو اسم الإنسان القرد فهذه طريقة غير دقيقة وغير علمية .

وأقول أيضاً ومما يؤكد فساد هذه النظرية أن اثنين من عمال المناجم في روما بإيطاليا عثرا على هيكل عظمي بدون رأس لإنسان يجلس القرفصاء بداخل كتلة لحمية على عمق (٦٩٠) قدما من سطح الأرض وقدر عمر هذا الهيكل بأحد عشر مليونا من السنين وذكر هذا الخبر في جريدة الشعب المصرية القديمة في عددها الصادر في ٥ /٨/ ١٩٥٨م فكيف ساغ لداروين وأتباعه أن يهرفوا بما قالوه واهمين .

ولنفرض جدلا أن الإنسان الأول قد تطور عن القردة العليا .

فلماذا تبقى القردة في بيئة واحدة جنباً إلى جنب مع الإنسان الأول ولا تتطور فتصبح من بني الإنسان مع أن التطوريين يؤكدون أن التطور يخضع لعامل البيئة والوظيفة[1] .

أو على الأقل لماذا لم يهذب القرد الأعلى من مستوى حيانه فيعمل على ستر جسمه أو يتمرد على نظام حياته الرتيبة فكل ما انتهت إليه البحوث في محاولاتها للربط بين القرد والإنسان مجرد خيالات وأوهام .

على أن بعض المفكرين الألمان قالوا عكس نظرية داروين فزعموا أن القرد أصله إنسان انحط إنسانيته إلى صورة القردة وهو ما يعبر عنه بالمسخ

(١) انظر إلى الفلسفة ومبادئها د / محمد علي أبو ريان ص ١٩٣ .

وهو ظاهر قوله تعالى لطائفة من اليهود : « كونوا قردة خاسئين »[1] ، وإن كان بعض المحققين يحملون الآية على أنهم فى أخلاق القردة وأفكارها المنحطة لا أنهم مسخوا قردة على الحقيقة .

فبأى النظريتين يأخذ المفكر ؟

الحق أقول : كل منهما على غير أساس برهانى والرأى إذا فقد الدليل كان فى حكم العدم .

خلاصة ماسبق .

ونستخلص من ذلك كله أن المنشوئى نفسه هو الذى يتبنى موقفاً غير علمى منحرف عن المنهج العلمى للأسباب التالية :

١ — خضوعه لأفكاره وأهوائه الخاصة ومبالغته فى القول بأثر أشياء دون أشياء .

٢ — عجزه عن الإحاطة أو الشمول النظرى لموضوع البحث وما يتصل به من ملايين الأشياء والأدوات والعوامل التاريخية المتغيرة وشرط صحة المنهج العلمى إحاطة العالم بموضوع البحث إحاطة شاملة كاملة بخاصة فى ميادين الإجتماع حتى تجىء النتيجة صادقة لاتحتمل الشك .

٣ — عجزه أيضاً عن استقراء الظواهر فى كل الأمم والشعوب .

وإذا تم هذا جدلا فإن استقراء التاريخ يحتمل الصدق والكذب إلا من جانب من يملك علما محيطا بهذا التاريخ من بدايته إلى نهايته ودراسة الأديان لمعرفة أصلها وتطورها تحتاج أيضا إلى هذا العالم الذى يتمكن من الإحاطة بتاريخ الإنسان وبيئاته كلها وما يتصل بها من الأشياء والأدوات .

(١) من سورة الاعراف الآية ١٦٦ .

البديل الإسلامى :

(١) آدم وخلقه :

يحدثنا القرآن الكريم فى خلق آدم — عليه السلام فنجده مرة يقول إنه خلق من تراب كما فى قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] ، ويقول أيضاً : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ...»[2] ونجده تارة أخرى يقول : إنه خلق من طين كما فى قوله فى حكاية عن إبليس : (قال خلقتنى من نار وخلقته من طين [3]) أى خلقت آدم من طين . ويقول : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [4] ، ويقول : « إنا خلقناهم من طين لازب[5] » أى من طين لاصق ونجده يقول إنه خلق من صلصال من حمأ مسنون[6] . « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[7] » . ويقول : إنه خلق من صلصال كالفخار يقول تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار[8] » .

هذه النصوص سالفة الذكر تحدثت عن خلق آدم .

ولنا أن نتساءل .

كيف نوفق بين هذه النصوص .

(١) سورة آل عمران : ٥٩ . (٢) سورة الحج الآية ٥ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٢ .
(٤) سورة المؤمنون : الآية ٤ .
(٥) سورة الصافات الآية : ١١ .
(٦) سورة الحجر الآية : ٢٩ .
(٧) سورة الحجر الآية : ٢٩ (٨) سورة الرحمن آية ١٤ .

والجواب : أن آدم أصله كان ترابا متفرقا فعجن بالماء فصار حمأ مسنونا أى طينا أسود متغير الرائحة . وقال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن . ثم جف هذا الحمأ المسنون حتى صار صلصالا كالفخار .

فالصلصال هو الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقرته .

ولذا شبهه بالفخار وهو الطين بعد طبخه بالنار (١) .

ومن العلماء من فسر الصلصال بالطين المنتن وهو قول مجاهد . واختاره الكسائى وهو مأخوذ من قول العرب : صل اللحم إذا أنتن مطبوخا كان أو نيئا فإذا قيل : (صلصال من حمأ مسنون) فمعناه : أن طينة آدم التى خلق منها كانت منتنة وقد سلت وانتزعت من حمأ مسنون أى : طين أسود منتن. فإذا وصف الصلصال بأنه كالفخار فمعناه : أن هذا الطين المتغير الرائحة جف ويبس وأصبح كالفخار (٢) .

هذا وإذا كان أنصار النظرية ، يؤولون النصوص بأنها تتحدث عن الخلق الأول ، وأنه لما كانت الخلية الأولى من طين وأن آدم صور منها بعد مراحل من التطور وهذا لا يتعارض مع القرآن .

فانا نقول إذا استطاع للمؤولون أن يؤولوا آيات القرآن فماذا يفعلون

---

(١) تفسير القرطبى — الجامع لأحكام القرآن للإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ ج ٥ ص ٣٧٤٥ بتصرف الناشر دار الغد العربى ٣ ش دانشى العباسية .

(٢) المصدر السابق نفسه ج ٥ ص ٣٧٤٤ بتصرف .

فى الأحاديث النبوية التى تفيد بأن حواء خلقت خلقا مستقلا من ضلع آدم (١) .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (٢) .

هذه خلاصة ما جاء عن المادة التى خلق منها آدم فى القرآن الكريم . ولا تعارض بين تلك النصوص التى وردت فى ذكر خلق آدم فإن كل إسم منها غير التراب يتبع حالة طرأت على ذلك التراب فتغير الإسم يسببها والأصل فيها وهو التراب .

وربما يسأل سائل فيقول : لماذا تحولت طينة آدم إلى حمأ مسنون أى طين أسود كريه الرائحة أليس الطين المنتن يكون فيه دائما بكتريا وخلايا حية لا ترى إلا بالمجهر فإن كان الأمر كذلك فهل حول الله طينة آدم إلى حمأ مسنون لينشىء فيه بكتريا وخلايا حية لتكون أساسا لخلق آدم عليه السلام ؟ ثم يتابع السائل تأملاته فيسأل مرة أخرى قائلا : أليس الله يقول: « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (٣) ؟ فلم لا تكون تلك السلالة

---

(١) حوليه كلية أصول الدين بالقاهرة — بحث للأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى ص ٤٥٤

(٢) فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى — للامام الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣ — ٨٥٢ ج ٦ ص ٤١٨ كتاب أحاديث الأنبياء رقم ٣٣٣١ ط/١ ١٤٠٧هـ — ١٩٧٦م الناشر دار الريان للتراث

(٣) سورة المؤمنون آية : ١٢

المستلة أى : المستخلصة من الطين هى الخلايا الحسية التى أوجدها الله بقدرته فى الطين المنتن لتكون أساسا لخلق آدم عليه السلام ؟ ثم يتابع السائل تأملاته فيقول : أى مانع من أن يكون المقصود من « سلالة من طين » فى الآية الكريمة تلك الكائنات الحية التى أوجدها الله فى الحمأ المسنون ليكون خلق آدم منها نحو خلق ذريته من الكائنات الحية فى نطف الرجال وبويضات النساء ولذا اجتمعا فى الآية الكريمة : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين »[1] .

ليتنبه المسلم من اقترانهما إلى أن الأصل والفرع نشأ من الكائن الحى والفرق بينهما أن الكائن الحى فى آدم سلالة وخلاصة منتزعة من الطين والكائن الحى فى ذريته سلالة مستخلصة من نطفة الرجل وبويضة المرأة ! ؟

ثم يتابع السائل تأملاته فيقول : تأمل قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين »[2] .

لا يشعر هذا مع النصوص الأخرى أنه تعالى : خلق من الحمأ المسنون أساس خلق آدم وهو الخلايا الحية ثم أجرى عليه التصوير بعد أن أجرى على تلك الخلايا الأطوار التى تسبق التصوير ألا يشعر بذلك قوله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا »[3] . فآدم وذريته كل منهم خلق أطوارا فأطوار خلق ذريته : طور النطفة فالعلقة فالمضغة فالتصوير ونفخ الروح . وأطوار خلق آدم لا يمكن أن تكون إلا ما ذكرنا من الخلايا الحية وما تلاها من الأطوار .

(١) سورة المؤمنون آية ١٢-١٣

(٢) سورة الأعراف الآية ١١ (٣) سورة نوح آية ١٤

أما كونه ترابا فطينا فحمأ مسنونا فصلصالا فإنه لا يصلح أن يسمى تطويرا فى عرف القرآن العظيم بل ولا فى عرف الناس .

ثم يقول السائل : إن هذا الكلام ليس من نوع مذهب النشوء الذى ذهب « داروين » وأتباعه بل مخالف كل المخالفة فإنه يقول : إن كل الحيوانات نشأت من الخلية وأنها ترقت وتنوعت ذاتيا بعضها من بعض تبعا لظروف البيئة وبالحوافز الذاتية على ما تقدم شرحه وأن القرد ترقى ذاتيا فنشأ عنه الإنسان وإن كل ذلك بالطبيعة ودون تدخل من الله . فهؤلاء لا يؤمنون بالله .

أما ما افترضته فى سؤالى فهو غير ذلك تماما ، فعقيدتى أن كل حيوان خلقه الله تعالى خلقا خاصا به حسب سنته التى أجراها الله عليه من غير ترقى من نوع أدنى إلى نوع أعلى ، وأن خلق آدم على صورته الإنسانية ليس فيه ترق من القردة إلى هذه الصورة الآدمية الجميلة بل خلقه الله من الخلايا الحية التى أنشأها الله فى الحمأ المسنون ومثله فى ذلك مثل ذريته فقد خلقوا من الخلايا الحية الناشئة عن تلقيح الحيوان المنوى للبويضة .

الفرق بين آدم وأولاده : أن خلاياه الحية احتضنها الحمأ المسنون وخلايا أولاده إحتضنتها الأرحام وكل ذلك بفعل الله تعالى ومشيئة فليس فى ذلك شائبة من مذهب « داروين » .

ما مدة حضانة أصل « آدم » فلا بد أنها تناسب تكوينه وقد تكون كمدة تكوين الجنين فى بطن أمه . وقد تكون أكثر أو أقل ولا يمكن تحديدها إلا بنص من الكتاب أو من السنة . ولا نص فى ذلك »[1] .

هذه الأسئلة سالفة الذكر تطرأ على ذهن أى باحث فى النصوص

(١) أقياس من نور الحق ح ٢ ص ٢٩ وما بعدها

ونحن نقول ردا على تلك الإفتراضات أنها فعلا مخالفة لمذهب «داروين» تماما ومع مواجهة هذه الإستنباطات فإننا نفصح بعدم الركون إليها كعقيدة فإنه يقف فى سبيلها قوله تعالى «خلق الإنسان من صلصال كالفخار»[1].

فهذا النص يدل على أن الله حول الحمأ المسنون إلى طين جاف كالفخار ثم أجرى عليه الحياه بعد ذلك بطريقة لا نعلمها.

(ب) خلق الإنسان العادى :

يقول الله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفه فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما. فكسونا العظام لحما. ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»[2].

اختلف أهل التفسير فى الإنسان فقال ابن عباس وعكرمه وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين. ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذى هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده، وقالو آخرون: الإنسان ههنا ولد آدم. والطين ههنا إسم آدم عليه السلام، والسلالة هى الأجزاء الطينية المبثوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى أوعية المنى صارت منيا، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: «وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين»[3]، وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان

(١) سورة الرحمن آية : ١٤
(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٤
(٣) سورة السجدة الآية ٨

إنما يتولد من النطفة وهى إنما تتولد من عصل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهى إما حيوانية وإما نباتية والحيوانية تنتهى إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيا. وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات.

٢ — قوله تعالى: «ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين» ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولا طينا. ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضوع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر.

٣ — قوله تعالى: «ثم خلقنا النطفة علقة» أى حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهى الدم الجامد.

٤ — قوله تعالى: «فخلقنا العلقة مضغة» أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ. وسمى التحويل خلقا لأنه سبحانه يفنى بعض أعراضها ويخلق أعراضا غيرها فسمى خلق الأعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

٥ — قوله «فخلقنا المضغة عظاما» أى صيرناها كذلك.

٦ — قوله تعالى: «فكسونا العظام لحما» وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.

٧ — قوله تعالى: (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق

الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين، وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: هـو تصريف الله إياه بعد الولادة فى أطواره فى زمن الطفولية وما بعدها إلى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت، ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله: (ثم إنكم بعد ذلك لميتون).

٨ — أما قوله: «فتبارك الله» أى فتعال الله فإن البركة يرجع معناها إلى الإمتداد والزيادة وكل ما زاد على الشيء فقد علاه، ويجوز أن يكون المعنى، والبركات والخيرات كلها من الله تعالى... فكأنه قال والبقاء والدوام والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء.

٩ — وقوله: (أحسن الخالقين) أى أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه)[1].

(١) تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر ٥٤٤ — ٦٠٤هـ المجلد الثانى عشر حـ٢٣ صـ ٨٥ وما بعدها الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥م الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

نتائج البحث:

فى هذا البحث الذى ناقشت فيه.

— تعريف الدين من الناحية اللغوية والإصطلاحية وعند علماء الغرب وعند الإسلاميين مع مناقشة أراء العلماء فى ذلك والرد عليهم بالدليل القاطع.

— تناولت أيضاً أراء العلماء فى مصدر الدين والباحث عليه مع إقامة الأدلة التى تثبت ذلك.

— كذلك تناولت أصل الإنسان فى ضوء القرآن والسنة وأصله عند التطوريين مع عرض أراء العلماء.

— كذلك ناقشت نظرية التطور عند القائلين بها.

— ثم بعد ذلك عرضت وجهة نظر الإسلام فى خلق الإنسان الأول (آدم) وبعد دراسة هذه النقاط سالفة الذكر دراسة منهجية وتحليلية فقد توصلت إلى النتائج الآتية —:

أولا: نشأة الدين مع وجود الإنسان على الأرض بعد هبوطه من الجنة كما ترى ذلك الكتب السماوية المقدسة.

ثانياً: مصدر الدين قوة عليا من وراء الطبيعة وهذا رأى علماء المؤمنين بالأديان السماوية وهو أرجح الأراء.

ثالثاً: الباعث على التدين هو النزعة الفطرية إلى القوة العليا وإحساس الإنسان بضرورة صلة بينه وبين هذه القوة التى وراء الطبيعة.

رابعاً: قضية الخلق ابتداء يرفض فيها القول من قبل البشر لأنها

مجردة من الملاحظة والتجربة كما أن الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد تدل على أن الإنسان خلقه الله بقدرته خلقاً متميزاً هيأه لعمارة الأرض فلا خلاف بيننا وبين القائلين بالتطور سوى إنكارهم للخالق واسنادهم عملية الخلق إلى الطبيعة .

خامساً : قوانين التكاثر كل حسب نوعه ، تؤيده بقايا الكائنات الحيـــة المكتشفة فى الحفريات والجيولوجيا تؤيد الظهور المفاجىء للمخلوقات الحية من كل الأنواع . والعلم يتفق مع الحقيقة بأن جميع الأجناس قد انحدرت من الزوجين الأصلين والحفريات تثبت الظهور المفاجىء لمدنيات أرقى والعلم يقول الإنسان لا يستعمل إلا جزءاً ضئيلا من مخه الأمر الذى يعتبر نقضاً لنظرية الإرتقاء ولكن الدين الإسلامى بل الأديان كلها السماوية تقول بأن الإنسان كان فى البداية كاملا ويستخدم عقله يقول الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » .

سادساً : تكوين الإنسان الأول بدأت بالتراب الذى أجرى الله عليه أطواراً مختلفة وانتهى إلى إنسان جميل الصورة .

هذا والله أعلم

أهم المراجع

— القرآن الكريم .

١ — أصل الأنواع — داروين .

٢ — أقباس من نور الحق — للأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدى سلسلة البحوث الإسلامية — السنة الحادية عشرة رجب ١٤٠٠ هـ — مايو ١٩٨٠ م .

٣ — للإنسان فى ظل الأديان — الدكتور/عمارة نجيب طبعة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ — مكتبة الأزهر أمام جامعة الأزهر — الدراسة .

٤ — الإنسان فى القرآن — عباس محمود العقاد — دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

٥ — تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب — للإمام محمد الرازى فخر الدين عمر ٥٤٤ — ٦٠٤ هـ طبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٦ — تفسير القرطبى — الجامع لأحـــكام القرآن — للإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المتوفى ٦٧١ هـ — دار الغد العربى ٣ ش دانش — العباسية .

٧ — حولية كلية أصول الدين القاهرة — العدد السادس ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م .

٨ — دراسات فى الأديان — أديان العالم القديم — الدكتور/أحمد أحمد غلوش — بدون .

٩ — الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان — الدكتور / محمد عبد الله دراز طبعة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م مطبعه السعادة .

١٠ — الدين والإنسان — دراسات فى الأديان والمذاهب — الدكتور / عبد الغفار محمد عزيز وآخرون طبعة ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

١١ — سنن أبى داود — للإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعب ابن إسحاق الأزدى السجستانى الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م — مصطفى البابى الحلبى .

١٢ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى — للإمام أبى عبد الله محمد ابن إسماعيل التجارى — للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣ — ٨٥٢ — دار الريان للتراث.

١٣ — قضايا فى الإجتماع الإسلامى محمد الفيومى — يدون .

١٤ — قضية الألوهية بين الفلسفة والدين — الدكتور / عبد الكريم الخطيب الطبعة الأولى ١٩٦٢ م — مكتبة كلية أصول الدين تحت رقم ٧٤٧

١٥ — قيم حضارية فى القرآن الكريم — توفيق محمد سبع — سلسلة البحوث الإسلامية — السنة الرابعة العدد الخمسون — عشرة ربيع الآخر ١٣٩٢ هـ — مايو ١٩٧٢م .

١٦ — لسان العرب — لابن المنظور — دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة — ج. م. ع.

١٧ — المدخل لدراسة الأديان — الدكتور / محمد بن فتح الله بدران المولود سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩١٠ م طبعة ١٣٨١ هـ

١٨ — المعجم الوجيز — طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م ماكس مولر بدون .

٥٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة للأستاذ الدكتور / عميد الكلية	٤ — ٥
١ — قضية السلام فى التصور الإسلامى بقلم الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق	٧ — ٣٤
٢ — حول ترتيب نزول السور القرآنية بقلم الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة	٣٥ — ٧٨
٣ — تأملات فى المذهب الديمقراطى بقلم الأستاذ الدكتور / طه الدسوقى حبيشى	٧٩ — ١١٠
٤ — المنهج الموضوعى فى التفسير بقلم الأستاذ الدكتور / مسموع أحمد أبو طالب	١١١ — ١٣٦
٥ — الغاية من دراسة الأعلام عند أهل الرواية الدراية بقلم الدكتور / يحيى إسماعيل أحمد حبلوش	١٣٧ — ١٩٨
٦ — الخطابة الدينية وأثرها فى الدعوة الإسلامية بقلم الدكتور / عبد القادر سيد عبد الرؤوف	١٩٩ — ٢٤٤
٧ — مفهوم الحكمة بين الدين والفلسفة بقلم الدكتور / جمال الدين حسين عفيفى	٢٤٥ — ٢٨٤

الموضوع	الصفحة
٨ — الأسس الفنية للدعوة الإسلامية فى ضوء القرآن والسنة بقلم الدكتور / خليفة حسين العسال	٢٨٥ — ٣٤٦
٩ — نظرية النشوء والارتقاء بين العلم والدين بقلم الدكتور / عرفة سالم حسن سيف الدين	٣٤٧ — ٣٩٦

رقم الإيداع بدار الكتب
٦١٣٣ لسنة ١٩٩٤ م